

نحن وآباء الكنيسة

بقلم المتربوليت سابا (اسبر)

ثمة تياران، بخصوص آباء الكنيسة، يتساجلان هنا وهناك، وقد يعنف السجال أحياناً. واحد يقول باتّباع تعليم الآباء في كلّ أمر، ويعتبر أيّ خروج عن تعليمهم، أو تفسير جديد لأقوالهم، وحتى مواجهة التحدّيات الإيمانيّة الجديدة، ضرب من الانحراف الإيماني، والخروج عن استقامة الرأي والأرثوذكسيّة. لا بل يصل بعض أتباع هذا التيار إلى اتّهام من يخالفونهم بالهرطقة. أمّا التيار الآخر، فيعتبر نفسه حداثياً، عصريّاً، لا حاجة به إلى الآباء، ينظر إليهم كما إلى شيء عتيق، بال، من الماضي، أو علامة مضيئة في التاريخ. يركّز أتباع هذا التيار على الراهن، ومعطياته، وتحدّياته. وينفتح على التعليم اللاهوتي في الكنائس الأخرى، ضارباً بالتراث الكنسي الثري عرض الحائط.

تيار يعظّم الآباء، وآخر لا يعطيهم أهميّة. ترى أيّهما الصحيح؟ في الحقيقة، الاثنان مخطئان، لأنّهما ينطلقان من مسلّمات غير صحيحة، ويقصران آباء الكنيسة على الماضي فقط، ويهملان استمرار عمل الروح القدس، واستمرار فعله التقديسي في المتنقيين والمستنيرين والمتألّهين.

قرن آباء الكنيسة المعلّمين حياة القداسة بالعلوم اللاهوتيّة، وما كانوا منظرين، وإن شرحوا وفسّروا، وغالى بعضهم في هذا المجال أو ذاك. وما كانوا أصحاب مدارس فكرية فلسفيّة، ولا لاهوتيّة حتّى. ما انطلقوا من الفكر الفلسفي الذي أتقنوه، بل وضعوه في خدمة الإيمان، وطوّعوه للتعبير عن الحقيقة، التي وجدوها في المسيح. تكلموا بلغة تناسب زمانهم. فالكنيسة بحاجة إلى أن تشرح الإيمان وتفسّره، لكلّ جيل باللغة التي يفهمها، وهذا ما برع فيه الآباء.

قد نجد عند بعضهم، خاصّة البعيدين زمنياً عنّا، لغة نستصعبها، أو أسلوباً لا نستسيغه، أو مواقف لا تتناسب مع مفاهيمنا العلميّة أو الاجتماعيّة أو السياسيّة الحاضرة. وهذا يعود إلى اختلاف الأساليب، والنظريات، والمفاهيم، والتحدّيات، بين زمننا وزمنهم. والحقيقة أنّنا لا نستطيع التكلّم عنهم بالجمع، لأنّهم ليسوا كتلة واحدة في كلّ شيء. فكلّ منهم يحمل لغة زمنه، ومفاهيمه، وعلومه، وعاداته،

وثقافته. وقد يختلفون في موقفهم من قضية كنسيّة ما، وهذا حدث مراراً في التاريخ الكنسي، لكنهم لا يختلفون في أساسيات الإيمان. لتتذكّر الموقفين المختلفين اللذين اتخذهما كلّ من بولس وبطرس الرسولين، وكيف وجدا الحلّ له في المجمع الرسولي (أع ١٥).

حصل في روسيا القرن الخامس عشر، سجال كبير بين القديسين يوسف ونيلس، إلى درجة دُعي رهبان، تلك الفترة فيها، إمّا يوسفون أو نيلسيون. وكانت نقطة الاختلاف متمحورة حول ملكيّة الأديرة. هل يحقّ للرهبان أن يمتلكوا أراضي ومؤسسات أم لا. اليوسفيّون قالوا بحقّ التملك، من أجل وضعه في خدمة المجتمع الفقير، أمّا النيلسيون فرفضوا، حرصاً على روح الفقر الرهباني، والتجرّد الكامل الذي نذروه!

تكمّن براعة الآباء وقداستهم في تأهيل ذواتهم لعمل الله فيهم، وفي قدرتهم على إعادة تبشير أهل زمنهم بالإنجيل الحقّ، أو في ما نسّميه اليوم بـ"الأنجلة". وهي كلمة مشتقة من "الإنجيل"، وتعني غرس الإنجيل في المجتمع الحالي، أو ما اصطُحّ على تسميته باللغة اللاهوتيّة، هنا والآن. فالكنيسة مدعوّة، في كلّ زمان ومكان، إلى أن تستعمل لغة القوم، الذين تبشّروهم بالإنجيل، وتفسّره لهم.

يقصر بعضهم زمن الآباء على القرون الثمانية الأولى. ليس هذا هو التعليم الأرثوذكسي على الأقل. لأنّه، ببساطة، يعني أنّ الروح القدس توقف عن العمل بعد القرن الثامن. وهذا ليس صحيحاً. فالله لا يزال حاضراً في كنيسته، وسيبقى فاعلاً فيها إلى دهر الدهارين. ولم يبخل الله على كنيسته مرّةً بآباء قديسين يفتقدون البشر بالتعليم القويم والغذاء الروحي الحقيقي. وهكذا نرى السلسلة مستمّرة من أيام الرسل والقديس أغناطيوس الأنطاكي، في القرن الأول، وصولاً إلى القديس المعلم صفرونيوس الآثوسي (أسكس).

وإذا ما درسنا كلّ أب على حدة، وقارناً بين تعليم اثنين، عاشا في زمنين مختلفين، سوف نجد مضموناً إيمانياً واحداً، وأسلوبين مختلفين في التعبير عن هذا المضمون الواحد. بالتأكيد سوف يواجه أب في قرننا الحالي ما لم يواجهه آباء القرون السابقة من تحدّيات. فالقضايا المطروحة اليوم، ما كانت كذلك في القرون السابقة، ولناخذ أمثلة عليها: علاقة الكتاب المقدّس بالثقافات القديمة، وقضايا العلوم الإحيائيّة،

والنظريات السياسيّة والاجتماعيّة، والمتغيّرات في القيم الأخلاقيّة، وما إلى ذلك. لقد بدأت البشريّة، بعد القرن السابع عشر، طريقة جديدة في التعاطي العقلي، وتطوّر العلم كثيراً منذ ذلك الوقت وحتى الآن، وطبع هذا التطوّر العلمي العقل الإنساني بأسلوب نقدي في التعاطي مع أيّ شيء. ومن يهتمّ بالتعليم يتوجب عليه أن يأخذ هذه المعطيات بعين الاعتبار، لكي يصون الإيمان، ويحفظ المؤمنين، ويهدي البعيدين.

أوجب ألا تتعاطى الكنيسة مع التحدّيات المعاصرة، فقط لأنّ الآباء القدماء ما تكلموا عنها، كونها ما كانت مطروحة في أيّامهم؟

ليست المشكلة هنا، بقدر ما هي في طريقة التعاطي مع اللاهوت. ما انفصل الكلام اللاهوتي عن المعاينة الإلهيّة في الكنيسة الأرثوذكسيّة تحديداً. لذلك فإنّ مقولتها الأساس هي أنّ "اللاهوتي هو الذي يصلي". فعندما يتقدّس الإنسان، ويجتاز مرحلة التنقية، ويبلغ الاستنارة، يسكن الله فيه، ويعبّ من نوره، الذي يضيء ذهنه، لكي يعبر عنه بالأسلوب المناسب لزمانه. وإذا ما علّم من لم يستر بعد، فإنّه يستند إلى تعليم المتقدّسين، ويسير على دربهم التقديسي. ليس التعليم اللاهوتي نمطاً فكرياً خاصاً. فالكنيسة ليست مدرسة فلسفيّة. الأمر مشابه لمن تكلم عن الحبّ، لأنّه ذاقه، وعرفه، واختبره.

لقد اقترنت حياة النسك والصلاة، عند الآباء، بموهبة التعليم والإرشاد والتفسير، فكان ما قدّموه، وما زالوا يقدّمونه للكنيسة والعالم، نتاج خبرة حيّة، وليس تنظيراً فكرياً، متأثراً بهذا المذهب الفلسفي أو ذاك.

فالأمانة للآباء تفترض بنا أن لا نلجأ إلى "تقميش" تعاليمهم، أي لا نأخذ، من تعاليمهم، قولاً من هنا وآخر من هناك، لكي نثبت فكرة نعتقد بها، أو ندحض موقفاً نعتبره منحرفاً. بل نتعاطى معهم بما يسمّيه لاهوتيو كنيستنا "الذهن أو الوجدان الأبائي". فالكنيسة "آبائيّة" بمعنى أنّ تعاليم آباؤها قاعدة أساسيّة لفهم لاهوتها وروحانيّتها وطريقة تفكيرها، ولذلك لا غنى لها عنهم. عشرة الآباء تعني التمثّل بعشرتهم للمسيح وحياة الفضيلة، التي عاشوها، والعبّ الكثيف من تعليمهم.

عندما تحيا بحسب روح الكنيسة الحقّ تكتسب حسّاً أو نفساً أرثوذكسياً، أو سمّه "آبائياً" إن شئت، تنظر بواسطته في كلّ شيء، وهو يندرك بخطأ هنا أو هناك. لكن هذا لا تكتسبه بمفردك، بل ضمن الجماعة الكنسيّة التي تحيا وإياها الوحدة الإيمانيّة. فالجماعة تحفظك من التطرّف أو الإفراط، وتالياً تساعدك كي تبقى على الاستقامة.